

الأدب واللغة

من الكائنات الحية

للأديب محمد عثمان الصمدى

— ٣ —

وتشكلت وظهرت في أثواب وصور مختلفة متباينة فلن يحول ذلك كله بينها وبين رجوعها إلى مصادرها . أو بينها وبين ذوى قرباها وكل ماتمت إليه بسبب قريب أو بعيد . وما من شك في أن ليس للجاحظ وأمثاله من المثقفين مصدر يحملهم على هذا النظر إلى المعاني إلا ما أشرنا إليه من قبل من الفهم الإجمالى . هذا مع اعتقادنا أن الجاحظ قد أسرف إسرافا شديدا حين عزاها كلها إلى النقل والسرافات

وكذلك روى أن رواية مسلم بن الوليد وقد على يزيد بن

مزيد بقصيدة مسلم المشهورة التي مطلعها

لاتدع بى الشوق إلى غير معمود نهي النهى عن هوى الهيف الرعابيد

فلم يسمح له حاجب يزيد بالدخول . ولكنه عاد فاشترط قبل أن يسمح له بالدخول على يزيد أن ينشده القصيدة . وكان كما قيل للحاجب أدب وفهم . فأنشده القصيدة أو شيئا منها ثم أذن له وبهنا في هذا الخبر أن تبين إلى أى مدى قد بحت الأذواق والأسماع الكلام المكرور . أو بعبارة أدق قد بحت المعاني المكرورة في أثواب غير الأثواب ، وفي صور غير الصور . فهى لاتدع بما تعرض فيه المعانى من تغيير للوزن والقافية . ومن تلوين وتصوير . ولكنها كما قلنا تفهم ما يلقي إليها على وجه الإجمال ، فإن ظفرت بالطريق المتكرر على هذا النحو في الفهم كما ظفر حاجب يزيد فذاك ، وإلا فلا

وقد كان بودى أن أنقل طرفا من النثر الفنى لذلك العصر .

ولكنى أجتزئ بالتنويه إلى أنه موجز شديد الإيجاز ، قد اسطنت كل الوسائل الفنية لضغطه وتركيزه ووجازته ، حتى ليدو غامضا أو كالغمامض في كثير من الآثار . وهو لهذا منطقي الأديم باهته لا يترقق عليه ماء . وليس من شك في أن ما آل إليه النثر الفنى هو طور طبيعى ، وأثر من آثار استجابته للحياة ككل كائن حتى يتأثر بها ويؤثر فيها . ونحو هذا تحديد بعض المعانى على ضوء المعرفة النحوية ، كما تقول حين تريد التعظيم : « إنا أرسلنا إليك الكتاب » وقد كان حسب المرسل إليه أن يفهم أن الكتاب قد صار إليه والسلام . ثم لا يثنيه التعظيم في كثير ولا قليل ، بل لم يكن يخاطر له على بال . ولقد رأينا من أجل ذلك طالما كبيرا كإن قتيبة يشكو أحر الشكوى مما انتهت إليه اللغة في

كان هذا كله لأن الذوق الأدبى كان قد تعقد وأصبح موضوعيا إلى أبعد حد ، فلا يرضى إلا عن الخصب والغزارة . وهو لهذا يضنط المعانى حين يتذوقها أو يتفهمها ضغطا شديدا . ويختصرها نافيا منها ما لم يكن في الجوهر ما استطاع إلى ذلك سبيلا . وقد يكون من الملائم هنا أن نلم بقول للجاحظ إزاء بيت من شعر أبى نواس وهو في وصف كأس

قرارتها كسرى وفي جنباتها . مهأ تديرها بالقسى الفوارس
قال : « نظرنا في شعر القدماء والمحدثين فوجدنا المعانى ثقلت . ورأينا بعضنا يسرق من بعض إلا قول عنتره (وخلا الذباب بها فليس ييارح) وقول أبى نواس (قرارتها كسرى) الخ البيت »
وليس يعنيننا من قول الجاحظ أسرق المحدثون من القدماء أم لم يسرقوا .. بقدر ما يعنيننا نظره إلى المعانى . فهى مهمما تلونت

لقد ازدحمت المكتبة العربية بسيل جارف من المكاتب الإسلامية التى تناقش الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية على ضوء القرآن ؛ فلماذا التهمها القراء في نهم واشتياق ، فتعددت طبعات الكتاب الواحد عدة مرات ؟ ولماذا خرس دعاة الإهم من الكتاب فلم نعد نسمع بمن يكتبون عن « كبرياء الحب » « ومأساة قلب » « والموجة العذراء » !

إن المستقبل للإسلام دون نزاع ، فن شاء أن يلحق بالركب المجاهد فليحمل قلبه في سبيل العزة والحرية والإيمان ، فما قريب ستبدد النجوم ، ويشرق النور التالئ ، « ويومئذ يفرح المؤمنون ، بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم »

محمد رجب البيومى

والنطق في الأندية والمجتمعات ظرفا وكياسة . وليس ذلك لحسب؛ بل لقد أراد أصحاب المنطق إلى الشراء أن يشعروا على نحو من حدود الفلسفة والمنطق . هذا وليس رد البحترى على أولئك النفر بمجهول لدى أحد من الباحثين والأدباء . ومن قوله :

كلفتونا حدود منطقكم والشعر يعنى عن جده كذبه وبالرغم من البحترى ، وبالرغم من كل شئ سرت العقليات إلى الشعر سرانا قويا . حتى ليدو شعرا بن الروى فى عموه رواسب عقلية تارة . وجدلا كلاميا تارة أخرى . والبحترى نفسه وهو أعظم (موسيقار) فى الشعر خلص العقل إلى أدبه فى أماديجه الضيقة التي كان يلفقها لأولئك الذين ليست لهم مآثر خليقة بالذكر والتسجيل . فقد كان يستمدها من العقل حيناً ، ومن التراث الأدبى حيناً آخر . وهو مالا نجد له مثيلاً فى نضوب الروح فيما سلف من شعر أموى على نحو عام . ورأى — ولعله أن يكون من الغرابة بمكان فى أنقى بعض الناس — أن أماديجه فى الخلفاء بوجه عام أضعف من مثيلاتها فى القواد والحكام وملوك الأطراف

وعنا هذا فقد كانت له تأملات شعرية يغلب عليها العقل الخالص دون سواه، ومنذ أن استأثرت العقليات بالسيطرة على الأفئدة والنفوس ، تطلع الناس إلى آفاق من المعرفة لم تكن معروفة من قبل . وهذا طور تتحجر معه اللغة ، وينظر إليها على أنها وسيلة وليست غاية من الغايات . ولا تبقى لها منزلة الغاية إلا فى أنقى المختصين أمثال ابن قتيبة ومن لفه من اللغويين والنحاة . وأحب ألا يفهم أحد أن اللغة قد اندثرت وأصبحت أترأ من الآثار فى ذلك المهد . كلا . فما إلى هذا أردت ، وإنما أقصد إلى سنة التطور، وإلى أن تبارين من المعرفة قد تمارناها فأيهما كانت ووافده أقوى ، ودوافمه أشد ، كتب له الظفر ، وأصبح سمه من سمات المصر يتميز بها من سائر المهور والمصور . وقد كان إلى جانب اللغويين والنحاة تلك البيئات الأرستقراطية التي انحدرت من أصول عربية خالصة . فهي تعمل على المحافظة على تراث العرب وإعائه لأنه من مقومات الشخصية العربية فى ذلك الحين . وإن لم يحل بينها وبين الأخذ بأسباب الحياة الجديدة فى ذلك الحين أيضاً . ولكن هذا شئ وروح العصر شئ آخر

ذلك المصر . ثم يؤلف للناس ما يتفهم فى هذا السبيل ، وما يقوم من أيديهم وألسنتهم ، وما يبصرهم بدقائق الالمة ، ويحدد لهم بعض ما فى مفرداتها من فروق . وحسنا أن نشير إلى هذه العبارة له حيث يقول:

فإني رأيت أكثر^(١) أهل زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكين، ومن اسمه متطيرين . ولأهله كارهين . أما الناشئ منهم فراغب عن التعليم . والشادى تارك للزيادة . والتأدب فى عفوان الشباب ناس أو متناس ليدخل فى جملة المجدودين ، ويخرج عن جملة المجدودين

ولفظة الأدب فى عبارة ابن قتيبة تعنى اللغة وعلومها . فلم يكن لفظ الأدب قد تطور إلى ما نفهمه منه فى عصرنا الآن . وكذلك لم يكتب ابن قتيبة بما عاب به أهل زمانه من جهل باللغة وعلومها ، بل عاب به أيضاً : الأدباء وكتاب الدواوين . وأولئك كما يقول الجاحظ خير ممن سواهم علما وبصرا وكتابة . . قال ابن قتيبة :

«فأبعد^(٢) غايات كاتبنا فى كتابته أن يكون حسن الخط قويم الحروف . وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبيتا فى مدح قيته أو وصف كأس»

وكذلك يقول فى كتاب الدواوين أيضا :

« وأى^(٣) موقف أخزى لصاحبه من موقف رجل من الكتاب اصطفاه بعض الخلفاء لنفسه . وارضىاه لسه . فقرأ عليه يوما كتابا وفى الكتاب (ومطرنا مطراً أكثر عنه الكلا) فقال له الخليفة ممتحنا له : وما الكلا . فتردد فى الجواب وتمثر لسانه ثم قال : لا أدري » ثم ضعف العلم العام بمدلولات اللغة ، وأصبح الناس يفهمون ما يلقى إليهم على وجه الإجمال ، ذلك لأن العقل كان قد سيطر على مصائر النثر والنظم . فهو قد هضم كثيرا من ألوان الثقافات ، بل لقد أصبح خالقا لها بالقدر الذى أهله له تطوره ونموه بالقياس إلى ما أتاحت له الأنظمة الدينية والسياسية والاجتماعية من حرية وانطلاق . ولقد بلغ من سيطرة العقليات على النفوس أن صار التشديق بمصطلحات الفلسفة

(١) أدب الكاتب لابن قتيبة ص ١٠

(٢) أدب الكاتب ص ٢

(٣) أدب الكاتب أيضا ص ٦

كله تعليلاً لها . ولننتهي آخر الأمر إلى ما انتهينا إليه من نتائج طبيعية محتومة ليست في حاجة إلى تعليل ولا تحليل . وإلى هذا فقد كان أمام اللغة طور لم يقض بعد إلى غايته ، وهو طور الفقه فيها وفلسفتها وتدوينها على نحو أوسع شمولاً وإحاطة

وبما يزيدنا يقيناً بأن الأدب لذلك العهد في الحقيقة الأخيرة ما نراه عند شعراء البيئات العربية الموسومة بالمحافظة وعند أشباعها من منازلة لبعض الألفاظ اللغوية . وإحساسها بها إحساساً شعرياً خاصاً . وهو طور الشاى المبتدى الذى يرى في بعض ألفاظ اللغة رنيناً وسحراً أخاذاً قوياً . أما الفحل فيرى اللفظ مهما عذب وحسن موقعه في السمع فإنه يستمد قوته وجماله من السياق . وأجدر هؤلاء المازلين للألفاظ بالذكر في نظرنا الشريف الرضى . ولننظر إلى بيته التالي

ياقلب ما أنت من نجد وساكنه خلفت نجداً وراء المدج السارى
فإن نجداً وساكنه والمدج والسارى كلها ألفاظ لها إيماءات
خاصة بالشريف الرضى وبأمثاله من الشعراء . ولكن البيت برغم
هذا كله قوى رائع . ومصدر روعته فيما أرى أنه حقق المزاج
العربى ، وما يهدف إليه من شجو وشجن . وإلى هذا فقد حقق
غنائية النظم أيضاً . وليست هي غنائية الفطرة والسليقة التي ألما
إليها في العصر الأموى . وقد يقال إن الشريف الرضى يرى من
وراء الألفاظ إلى مدى أبعد مما تقول . وقد يقال إنها عناصر التقليد
المنحدرة من التراث الأدبى القديم . وقد يقال غير هذا وذاك .
ولكن بشىء من التدقيق لا يسمننا آخر الأمر إلا أن نعلم بما
توهنا به . وقد قلنا من قبل إن الشعر في العهد العباسى الأول كان
في عموميه مجرد فن فقط . وفي العصر الذى نحن بصددده قد تطور
هذا الفن . وما ظنك بشاعر يقول مقطوعة من الشعر في الغزل
ليست بالقصيرة ، ثم لا تخرج منها بشىء إلا أن الشاعر يريد أن
يقول لمن ينازله (أنت قر) . وأنا أفهم أن هذا من أغراض الفن .
ولكنه تطور على كل حال . وما بعد ذلك غير التفكك والانحلال .
وانتقال الشعلة من أيدي الأدباء والشعراء إلى أيدي المفكرين والفلاسفة
أما بعد . فهذا رأى أسوقه لوجه الحقيقة كما أعتقد . غير مبال

سخط الناس أو رضوا

محمد عثمان المصري

تمت

وما زال العقل يقوى سلطانه ويشدد ، حتى ينتهى الأدب إلى
شيخوخته في العهد العباسى الثانى . وهنا يتناول العقل والفلسفة
في الأدب تماثلاً تاماً ، إذ أنه كان قد تمثل ما هضم من الثقافات ،
وأحاطها إلى أثر من آثاره . ويكفى أن ننظر إلى أبى الطيب التنبى
وإلى أبى العلاء العرى فيها مظهران صحيحان لذلك العصر . وإنما
كانا كذلك لأنهما الشاعران اللذان تتقفا بثقافة العصر تتقفا تاماً .
نعم يكفى أن ننظر إلى هذين الشاعرين لئرى إلى أى مدى تأثر
الإنتاج الأدبى بالعقل والفلسفة . وهنا نقطة التحول كما يقولون .
وأقف لأسأل القارىء هذا السؤال : إلى أى طور كان يمكن أن
يتطور إليه الأدب بعد أن بلغ هذه المرحلة؛ مرحلة العقل؟ أما أنا
فأرى أنه قد أدركته الشيخوخة ، وما بعدها غير الموت . فالشعر
وهو أعظم مظهر له لا يحتمل من الماخذ العقلية أكثر مما
أحتمل على يدى أبى الطيب التنبى وأبى العلاء . ولولا ما كان
للدين من سلطان كان من المحتمل أن يتطور الشعر فيه إلى
الملحمة . ولكنه لم يقع ، لأن الملحمة أرفع ماتكون حين تستمد
موضوعاتها من الأساطير الوثنية تعالج عليها كثيراً من مشكلات
النفوس والعقول والأجتماع في مختلف البيئات والطبقات . وقد
قال باحث أن رسالة الغفران للعمرى ضرب من الملحمة على نحو
من الأنحاء . ولكن مع هذا هل استطاعت رسالة الغفران
التخلص من أغلال الدين؟ من الحق أنها لم تستطع . وما كان
لها أن تستطيع

وإلى هنا نرى من الخير أن نشير إلى ما قاله الباحث الذى
ألمنا به في أول البحث . وهو أن اللغة لم تبال بما رزمت به الدولة
من تدهور سياسى في القرن الرابع الهجرى . وأنا أيضاً أقرر أنها
لم تبال . ذلك لأن شعلة الأدب لم تكن قد انطفأت بعد . ولأنها
كما قلنا كانت حتى لم يكن قد استنفد حياته . ولم تكن شعلة هذه
الحياة قد أنت على كل ما قدر لها من وقود . بل ربما كانت أشد
توهجا مما كانت عليه في العهد السابق . شأنها في ذلك شأن
الحققة الأخيرة في السراج

ولقد يبدو لعمري النظر أن تعليلاً هذا بسيط بل ساذج .
ولكنهم لو ذكروا أن الأدب كائن حتى كما بينا أننا لبدا لهم غير
ما يظنون . ونحن ما سمنا هذا البحث من أوله إلى هذه المرحلة ؛
وما طرأ على الأدب في أثناء ذلك من تحول وتطور ، إلا ليكون